جبران خليل جبران

ومعرضه التصويري

* * * * *

اسم جبران خليل جبران في الآداب العربية يستنزل عَلَى قلب من يعرفه بهجة نيّرة واعجاباً ويُحرك في قارئه شواعر غزيرة صافية تتدفق من نفس وجدت في كتاباته راحتها ونورها وطريقها المؤدية الى قمم الحقيقة والفجر الروحي .

ولكن لجبران اسماً في غير الآداب ، ولحياته الروحية اثاراً غير الكتب والدواوين . ان له عدا ذلك اسماً عاطراً وصيتاً ذائعاً في فن التصوير . ولهُ من الآثار في هذا الفن الشريف ما جعل له مكانة سامية في عالم الفن الامير كي (ومن لي بأن أقول السوري ؟) يعترف بها الناقدون المخبيرون

يقيم جبران كل سنة معرضاً يجلو به صوره الجديدة شأن كبار المصورين وقد أقام من عهد قريب معرضاً لصوره الصغيرة اتاح لنا الحظ ان نكون في

جملة من استعرضوها في قاعات كنودلر الشهيرة في نيويورك .

دخلنا الحجرة المخصصة لصور جبران خاشعين . وجلنا نتأمل صوره الاربعين مستفسرين غوامضها مستجلين رموزها في سكينة لطيفة غامرة لم يعكرها وجود المتفرجين . فرأينا روح جبران السامية متجلية في رسومه كما كنا نراها في تضاعيف سطور مقالاته .

معرض جبران يهمنا نحن السوريين كثيراً لانه جلّ ما عندنا من الغنى الفني ان لم يكن كله . فليس من يمثلنا في هذا الفن الجليل الجميل سوى جبران — وقد يذكر غيرنا واحداً أو اثنين سواه من الذين لا يزالون مجهولين عندنا — فلذلك يستدعي هذا المعرض قول كلمة نقدٍ منا تفيه حقه من وجهتيه الفنية والوطنية المتعلقة بنا . ولكنا لا نرى من نفسنا اهلية واستحقاقاً لان ننخرط في عداد منتقدي التصوير . ولهذا نستعين على غرضنا بايراد بعض ما قالته الصحافة الاميركية في هذا المعرض — وقد قالت فيه كثيراً — واقتطف مما وقع تحت اعيننا في الصحف التي اعتدنا مطالعتها .

قالت جريدة « نيويورك اميركان » تحت عنوان « رؤى مصور شاعر » — « رسوم جبران تشغل احدى الغرف في معرض كنودلر وتلبس تلك الحجرة حلة غرابة تقصيها عما حولها من الاعتياديات . وذلك لان جبران شاعر مثلما هو مصور ، ولان سكون تلك الحجرة كان مكتظاً بمخلوقات مخيلته . وكأني بالمتأمل فيها يدخل الى حجرة النفس البشرية فيجدها مسكونة باشباح التذكارات والاحلام والشواعر .

هنالك رهط من القنطورس (١) يتلهون بالانسان كأنه لعبة . وهنالك بشر مستغرقون في وحدتهم ، وآخرون أقل وحدة منهم يعانق بعضهم بعضاً، وهناك وجوه مستغرقة في هواجسها استغراقاً عميقاً حتى لتكاد تحسبها نائمة . وهناك هدوء تام حتى انك لتحسب الهواء فارغاً تسكنه ارواح هي اشواق ونزعات صامتة يتساءل عنها الفؤاد قائلاً — أهي يا ترى نتيجة شواعر لم تنطبق عَلَى الواقع أو هي خبرة لم تكن سوى اغترار ! وما اهيب هذا المكان وقد أبكمه الغموض ونابت فيه الشهوة عن الارادة ووضع القدر الاعمى الشهوة تحت أمره .

أجل ان القدر الاعمى ليرف فوق كل شيء هنالك بطيئاً في عمله كأنه يتلمس طريقه واثقاً بقوته اكثر من وثوقه بقصده ، بينا الانسانية تخضع امامه ذليلة مترقبة فجر الحرية ليحل قيودها ويطلق سراحها ويفتح عينيها للنور ويمنح روحها جناحاً ويسعفها لتغلب نفسها بنفسها فتسود عَلَى القدر الذي كان لها سيداً .

وكأني بالترقب المتوتر قد حصر النظر في وجه من الوجوه بين تلك الصور . وهو وجه امرأة دقيق الرسم لطيف الملامح قد علا فوق الارض والصخور حيث تولدت اشكال مبهمة غير كاملة ولم ينفصل عنها تماماً بل لا يزال مربوطاً بها بصلات القرابة . ارتفعت الامرأة نحو الاعالي ووجهها يتألق بنور ناعم لين كالقمر في ظلال الفجر وأجفانها قد أخذت بالانفتاح لاقتبال

(١) القنطورس حيوان خرافي نصفه الاعلى انسان ونصفه الاسفل حصان

نسمة الروح . وقد دعا المصور هذه الصورة الجميلة الموضحة مظهراً رائعاً غريباً من الاحتمال والشوق باسم « السكينة »

وفي المكان نفسه فوق بقية الرسوم صورة جسم طائر لا جناح له يعتمد في طيرانه عَلَى قوته الغريزية في العوم والحركة . وذلك الجسم قد انبسط عارياً انبساطاً حراً مطلقاً عَلَى بياض الورق . وبين هذا الجسم والخلاء من المناسبة في الدقة والنعومة ما ينتقل بخيلة الناظر رغماً الى ما وراء حدوم القرطاس . فيخيل له ان ذلك الجسم يتحرك باستقلال في عباب اللانهاية »

وقالت جريدة « كرسشن ساينس مونيتور » — « لم يبقَ من التأثيرات العديدة المختلطة التي علقت بذهننا اثناء زيارة سريعة للمعارض التصويرية ما هو اشد صراحة من التأثير الذي احدثته فينا رسوم جبران المعروضة في معرض كنودلر .

جبران سوري ولد في متحدرات لبنان الغناء العريقة في القدم . والظاهر ان التخيلات الشعرية الشرقية بغوامضها الباطنية ثبتت فيه رغم التغيرات الجوهرية التي انتقل اليها اثناء درسه الادب وتعاطيه التصوير سنين عديدة في باريس ونيويورك .... »

وقالت مجلة « اميركان آرت نيوز » — « تعرض في معرض كنودلر رسوم لجبران خليل جبران ينتهي عرضها في العاشر من شباط . هذه الرسوم وان كانت تنم عن تأثير فن « رودان » في جبران ، فهي تبرهن عن مقدرة الاخير وتفننه ... وبعض هذه الصور خيالية غريبة . وتستحق دون شك

ألتفات القوم ..»

وقالت جريدة « التايمس » في مجلتها الاحدية — « في معرض كنودلر رسوم لجبران تسبب لذة عظمى للجمهور الميال الى هذه الاساليب من الفن . معلوم ان نية المصور تقاس باهمية رسومه . فاذا تعمق حتى وصل الى جوهر موضوعه وعرض علينا ما يراه مغتبطاً اغتباط من يكتشف شيئاً جديداً ، فهو المصور الحقيقي مهما عرض له اثناء ابحاثه العنيفة في عمله الدقيق . ويلذ لنا ان نرى ان كثيرين من المصورين الذين يستميلهم التعمق في منهجهم يعدلون احياناً كثيرة الى البســاطة ويجدون راحة في العود الى التصوير بالفحم أو بالقلم ..»

وقالت جريدة « التريبيون » النيويوركية — « رسوم جبران المعروضة في متحف كنودلر تبلغ الاربعين عدداً . وهي حديثة الطرز بمعناها اكثر منها بمبناها . وتذكرنا باسلوب تصاوير رودان الشهير — على ان جبران يعتني في رسومه اكثر منه ويرسم الهيئات مستعملاً خطوطاً كثيرة حيث لا يستعمل رودان الا خطاً واحداً — وجبران خيالي ورمزي و « مفكر رزين » .....»

ونشرت مجلة « الفنون السبعة » مقالة ضافية تحت عنوان « فن جبران خليل جبران » بقلم احدى شهيرات المنتقدات الاميركيات فاعطت وطنينا حقه من التقدير والمديح . ولقد كنا نود تعريبها بكاملها لنطلع قراءنا على ما لجبران من المكانة في عالمي الفن والادب الاميركيين لولا ضيق الفسحة . فلذلك نكتفي بايراد بعض جمل منها —

« فن جبران رمزي سامي المغازي ، لان اصوله ليست في التصورات بل في تلك الحقائق الجوهرية التي تظل ثابتة في كل العصور والتجاريب ...

جبران يهتم في فنه ليس بتاريخ الانسان فقط بل وبتاريخ الحياة أجمع . ويهمه منها ليس وصفها وتصويرها فقط بل وفوق ذلك مقاسمتها عراكها الأبدي .

فنه عصري كروح عصرنا الحديث ، وقديم كالزمان ....»

هذا هو جبران المتفنن كما يقدره الاجانب ومن الغبن والحيف المدهش ان نرى صحافتنا لم تكترث بمعرضه ولم تفه حقه من النقد والذكر . فكأن الفن في عرفها لا يستحق تنويهاً بازاء مواضيعها الدنيوية ، ولذلك تركت للاميركيين حق الافتخار بمصور شرقي نحن احق باكرامه من الاجانب . ولكن ربما صدق فينا القول المأثور « ليس لنبي كرامة في وطنه »